بقلم: محمود وهّاب
رسوم: وحيد خاتمي

لن أدْعُو لك...

كان مستقلياً على ظهره، يأكل الرطب بسرعة. وكانت زوجته المشغولة بترقيع قميص ابنتها، تلاحقه بعينيها. أمّا الأولاد، فقد كانوا يلعبون في زاوية الغرفة. قامت المرأة منزعجة من مكانها ورفعت وعاء الرطب من أمام زوجها.

- لا تأكل كلّ هذا المقدار من الرطب، سوف تؤلمك معدتك. عندها من أين سآتي لك بالمال لشراء الدواء؟ وبدلاً من أن تجلس هنا وتأكل كلّ هذا الرطب، فكّر بنا قليلاً وفكّر بهؤلاء الأطفال الذين لا ذنب لهم. لقد مضت أشهرٍ عدّة لم تُدخل قطعة لحمٍ إلى هذا المنزل. يا لك من كسول، ويُقال لك رجل.

ضحك الرجل الكسول، وقال: «آه، ها قد بدأتِ ثانيةً يا امرأة. عمل، عمل، عمل. كلّ ما تنطقين به هو هذا. العمل للأشخاص الذين لا فكر لديهم. أمّا أنا فسوف أجني المال دون عملٍ أو جهد».

- ها، وكيف ذلك؟ عبر الاحتيال على هذا وذاك وخداعهما، أم بالسرقة؟ لقد اقترضت عشرين درهماً من جارنا قبل أسبوع، هل رددتها له؟ والله إنّي لأخجل من أن يقع وجهي على وجه زوجته.

غرق الرجل في فكره وأخذ يرسم خُطةً في ذهنه، ثم قام من مكانه. نظرت إليه زوجته بتعجبٍ وقالت: «ها، ما الذي حصل؟ جيد لقد تحرّكت من مكانك!».

- إنّي ذاهبٌ إلى منزل الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام.

- ماذا؟ منزل الإمام الصادق عليه السلام؟ وهل تريد أن تأخذ منه قرضاً أيضاً؟

- مال؟ كلا.

- إذاً ماذا؟ تريد أن تجد عملاً شريفاً؟

- آه. عادت تتكلم عن العمل. لقد قلت لك إنّي لا أريد العمل، بل أريد الذهاب إليه كي يدعو لي أن أصبح غنياً، فهو ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وإذا دعا لي فسوف أصبح غنياً.

ضحكت المرأة وقالت: «يا رجل، إذا أردت أن تصبح غنياً وأن لا تحتاج إلى هذا وذاك، فعليك أن تبذل الجهد، أن تعمل، ألا تفهم؟!».

- سوف ترين. إذا دعا لي، فسوف أصبح غنياً. تقدّمت ابنته الصغيرة، وقالت: «بابا، هل ستشتري لي ثوباً جديداً جميلاً؟ ليس عندي ثوب جديد، فكل ما أملك ممزق».

- نعم، يا بنيّتي. سوف أشتري لك ثوباً جديداً جميلاً. اصبري حتى أصبح ثريّاً.

أمسك ولده بيده أيضاً وقال: «بابا، وأنا ماذا؟ هل ستشتري لي حذاءً؟».

- نعم يا بني. سوف أشتري لك حذاءً رائعاً. ثم خرج الرجل من الغرفة فرحاً. شاهدته هرةٌ كانت في باحة المنزل، فماءت له. انحنى وأخذها بين يديه ونظر إلى عينيها اللامعتين وقال:

- وأنتِ أيضاً، ماذا تطلبين؟ لا بد من أنّك تريدين اللحم. أعدك أن أشتري لك فخذ جملٍ.قال ذلك وخرج من المنزل مقهقهاً. وأخذ يمرّ في الأزقة حتى وقعت عيناه من بعيدٍ على شابٍ. عرفه على الفور، فاختبأ خلف جدار منزل. لقد كان أحد الذين أقرضوه مالاً. كان قد أخذ منه مالاً منذ شهرين ووعده أن يردّه إليه خلال يومين أو ثلاثة، ولكنه لم يستطع.

قبع الرجل في مكانه خلف الجدار حتى مرّ الدائن من هناك، فأكمل طريقه. ما إن مشى قليلاً وانعطف عند آخر الزقاق حتى صادف بائع العلف، الذي رآه فبادره قائلاً: «السلام عليك يا صديقي، إلى أين بهذه العجلة؟».

مسح الرجل الكسول بيده على لحيته وقال: «ممم، كما تعلم إنّ نقل رزمات العلف من مكانٍ إلى آخر عمل صعب».

قال بائع العلف: «كلا، الأمر ليس كذلك. فالعلف اليابس ليس ثقيلاً. بل نقله سهلٌ جداً؛ أرى أنك تستطيع القيام بهذا العمل».

- إذاً أمهلني قليلاً، حتى أفكر بالموضوع.

فقال له بائع العلف مودّعاً: «سوف أمهلك يومين أو ثلاثة كي تقرّر، وإلّا فسوف أضطرّ إلى استخدام شخصٍ آخر». قال الرجل الكسول محدّثاً نفسه: «ويحك! وهل بيع العلف أصبح عملاً. يا ويلي، ما إن يمسّ هذا العلف اليابس الجسم، حتى يبدأ الحكاك». في النهاية، وصل الرجل الكسول إلى منزل الإمام الصادق عليه السلام. ما إن همّ بطرق الباب حتى فُتح، ليخرج منه عليه السلام وأحد أصحابه.

- يا إمام المؤمنين، يا ابن رسول الله، السلام عليكم.

نظر الإمام الصادق عليه السلام إلى الرجل الكسول، وردّ تحيّته مبتسماً، وسأله عن أحواله.

- «سيّدي، لي عندك حاجة».

قال الإمام الصادق عليه السلام : «قل، تفضّل».

- سيدي، ادعُ لي أن يرزقني الله مالاً وثروةً كبيرة.

نظر الإمام الصادق عليه السلام إلى الرجل وقال له: «كلا، لن أدعو لك أبداً».

- لن تدعو لي؟ لماذا؟

- لأنّ الله وضع أمامك طريقاً، طريقاً صحيحاً.

- طريقاً؟ ما هو هذا الطريق؟

- لقد قال الله تعالى إنّه يجب أن تؤمّنوا طعامكم ومالكم بالعمل وبذل الجهد، وأنت تريد الحصول على ذلك دون أيّ تعبٍ، تريد أن تصبح ثرياً بالدعاء فقط. قال الإمام عليه السلام ذلك وانطلق. التفت صاحب الإمام إلى الرجل الكسول، وقال له: ما هذا الفكر الباطل الذي تحمله؟ كلٌّ يجب أن يتعب ويبذل الجهد في الحياة. وهل أنت أفضل من النبي صلى الله عليه وآله أو من الإمام علي عليه السلام؟ لقد كانا يعملان بأيديهما في هذه الحياة: في الزراعة، في التجارة وفي الشراء من السوق. ها هو نفس الإمام الصادق عليه السلام يعمل ويتعب، فقد رأيته مراتٍ عديدة يعمل في الزراعة في أيام الصيف الحارة.

انطلق صاحب الإمام عليه السلام. أمّا الرجل الكسول فوقف في مكانه غارقاً في تفكيره: «آه! لم أكن أتوقع ذلك. لم تنفع خطتي. والآن ماذا أفعل؟ الجميع يقول العمل. هذا فقط، يا ويلي...».

ثم تذكّر كلام بائع العلف: «سوف أمهلك يومين أو ثلاثة كي تقرّر، وإلّا فسوف أضطر إلى استخدام شخصٍ آخر...».